الرشدية اللاتينية في الوعي الفلسفي الأوروبي

علي زيعور

1 ـ الحركات الفلسفية في أوروبا النهضة وما قُبيل الحداثة:

تُلاحِقُ المدرسةُ العربية المعاصرةُ في الفلسفة المُجحَفَّ والمغيَّبَ أو المطرودَ في التأرخة الأوروبية، أو في بعضها ولدى المؤرِّخ اللافيلسوف[1]، للحركات التي أَجَّجت الوعي الفلسفي الذي سبق ما سمَّته أوروبا بالحديث (را: أدناه، ديكارت). أودّ أن أتنبّه إلى أنّ تلك الحركات تَتقبّل، في قراءتي، أن تُنعَت بالعربية أو أن تُقرَأ أو تؤخَذ كمتوقدةٍ ومُحرِّكةٍ داخل البنية اليونانية العربية اللاتينية.

2 ـ الحركة الأولى، الأفلاطونيون[2] (أو أفلاطون العَرَبي اللاتيني):

لم تكفّ الأفلاطونية عن جذب الفكر المؤمن في عصر النهضة؛ ولم يَخمد أملُ الفلاسفة في التغذّي من الأفلاطونية وحتى في اعتبارها فلسفة مسيحية. يَتقدّم **نيقولا دي كوزا** [الكوزاوي]، 1401 ـ 1464، بمثابة الأبرز في ذلك التيار. وهو يُعَدّ من الإنسانويين؛ وتَغذّى بالفكر العربي الإسلامي وبعالَم الميتافيزيقا الأفلاطونية العربية. فمن المعروف أنّه يُفهَم على نحو دقيق شامل إن قرأناه كمفكّرٍ أورد ابن سينا، على سبيل المثال وبحسب ما نقرأ مراتٍ كثيرة جداً[3]. إلى جانب

---

(1) نشير، هنا، إلى جدوى وضرورة العودة إلى الدراسات الإيطالية التي تُغيَّب في التأرخة الفرنسية.

(2) أو، كما سيبدو، الأفلاطونيون داخل الفضاء اليوناني العربي الغربي.

(3) اهتم بذلك كلّه دي غاندياك الذي كان، في السوربون وأوروبا، مخلِصاً مدقِّقاً في تثمينه العالي للفلسفة العربية الإسلامية. وعلى نقيض الأوروبي الأيديولوجي السياسي (الإنكليزي أو الفرنسي، المستشرق، الجاسوس. . .) وَقَفَ باحترام حيال الفلسفة العربية الإسلامية. له =

فكره الفلسفي، حيث يرد دنيسيوس المنحول وأبروقلُس والفكر الصوفي الألماني، يُقدِّم في الفكر السياسي نظراً مؤيداً بقوةٍ للسلطة البابوية ولمكافحة الإسلام على الصعيدَيْن النظري حيث المجابهة الفكرية والعقائدية، ثم العملي حيث كان يرى في الإسلام العثماني خطراً عمل الكاردينال فعلياً من أجل شَنّ حربٍ صليبية ضده.

لعلّ كتابه «الجَهل الحكيم» مُلخِّص لنظريته في الدين المسيحي والألوهية وفي حدود العقل. وفي قوله في الرياضيات، كما في تفسيراته للحركة، وأفكارِه في النفس والمعرفة والإيمان وفي الميتافيزيقا، يكشُف الكوزاوي عن فكرٍ توفيقي، وعن رغبةٍ في تشييد نظريةٍ كبرى عريضةٍ تكون توليفيةً تركيبية.

وينتمي إلى ذلك التيار الأفلاطوني مَرْسيليو فتشينو [مارسيل فيسِن، فيسينو] الذي كان هو أيضاً، إنسانوياً، وإيطاليّاً. يُعَدّ فِتشينو (1433 ـ 1499) من بين أكبر المعجَبين **بأفلاطون**، كما عمل على ترجمته بمساعدة مجموعة من العلماء ممّا أدّى فيما بعد إلى نشوء الأكاديمية الفلورنسية. وبعد أن أنهى ترجمة أعمالِ أفلاطون في سنة 1477، انتقل إلى ترجمة **التاسوعات** لأفلوطين. بذينك الفيلسوفَيْن بنى فتشينو عالمه الفكري؛ ومن ثمت فمن السَّويّ أن يكون الفضاء الأفلاطوني العربي أو السيناوي، في صلب تلك النظرية الفلسفية لذلك العالَم الفكري الذي، على صعيد الحياة الواقعية، آمن بالسحر وبالعلاجات «الإيمانية» و«الكواكبية»؛ فواجه بسبب ذلك تُهماً من قِبل البابا.

وتحرك في فضاء مماثلٍ **جان بِيك دي لا ميراندول** (1463 ـ 1494). فهذا أيضاً آمن بالروحاني الغريب وبالمذاهب الغنوصية والتنجيم والسحر والطلاسم؛ ووفّق في مذهبه الفكري بين تلك الغوامض والعِلم الطبيعي، وبين أفلاطون وأرسطو؛ مما يعني أن تفكيراته وآراءَهُ تأسَّست وأشادت تبعاً للنزعة التأويلية المُبالِغة. أما باراسِلس (1493 ـ 1541) فقد أتى كطبيب؛ وكانت له آراء

= منا الشكر، واعتراف بفضله ومساعدته في دراستي للنفسانيات، ومن ثم للعقلية، في الفكرَيْن العربي الإسلامي واللاتيني (الأوروبي، الغربي، الوسيطي وفي عصر نهضته).

تأويلية، ومزاعم فكرية كثيرة حول النفس الكُلّية، والألوهية، والعقول المفارِقة، والعالم، والعِلم الطبيعي. أما مزاعمه التطبيقية فلم تكن مقتصِرةً على ما كان يقوله عن نفسه أو ما كان يجريه في محاضراته؛ فهو كان يقدِّم نفسه على أنه الطبيب الأعظم والأوحد، والأرفع من جالينوس ومن ابن سِينا (أَحْرَق علناً كتاباً للأول، وكتاب «القانون»)، معلِناً ـ في مدينة بال وبالألمانية ـ موتَ القديم والعودة عنهما إلى كتاب الطبيعة وولادةَ الجديد.. ومع ذلك فإنّ ذلك كله لا يعني أنّ تأثير باراسِلْس، واهتمامه بالسحري والرمزي والغنوصي لم يكونا بارزَيْن في التصوف والعِرْفانيات والأسراريات، بل وفي الجمعيات الصوفية الألمانية.

يقترب الفكر الأوروبي هنا من تشييد فَهم عامّ للوجود يستقل عن التصورات الدينية، من دون أن يقترب ذلك الفهم من التأسّس على العلوم التي كانت في عصر النهضة آخذة بالتوضّح والإنتاج المؤشِّر. فما هو، الآن، بومبو ناتنري، وتيار الرشدية اللاتينية مجابِهاً لتيار أتباع الاسكندر الأَفروديسي؟

3 ـ التيار الثاني، الرشديون اللاّتينيّون (في جامعة بادوڤا):

تميّزت جامعة بادوڤا، تَتَبع جمهورية البندقية، بالحرية والعلمانية. وكانت جامعةً أرسطوطاليةً رُشْدية أي بقراءةٍ رشديةٍ لأرسطو. أشهر أساتذتها بومبو ناتنْري (1462 ـ 1525)؛ ويُعَدّ ممثلاً للتيار المعادي للرّشدية التي كانت سائدةً في عالَمها. وفي كتابه «**في خلود النفس**»، والثواب والعقاب، والفضائل والرذائل... ويَصل بومبو ناتنري في بحثه لموضوعة الفضيلة والرذيلة إلى القول إنّ المُشرِّعين ابتدعوا الإيمان بالخلود رغبةً منهم بالمصلحة العامة. ولا يمكن التوفيق بين الإيمان الديني في ذلك المجال الأخلاقي، الذي هو عنده مجال الأخلاق الطبيعية، والحقيقة أو الفلسفة. وكذلك فهو لم يَرَ مجالاً للتوفيق أيضاً بين القول بالعناية الإلهية والقول بالحرية الإنسانية. أخيراً، تبدو معارضته للإيمانيات الدينية ماثلةً أيضاً في تفسيره للمعجزة؛ فلم يَرَ لهذه الأخيرة غايةً عند الإنسان الذي عليه، بحسب بومبو ناتنري، أن يتخذ غايةً كافيةً العيش بحسب طبيعته البشرية والاستقامة الأخلاقية والواجبات الاجتماعية.

انخرط في الحوار بين الأفروديسيين (الإسكندريين) والرشديين، فمال إلى

نظرية الإسكندر الأفروديسي القائلة بفناء النفس. وانتماؤه إلى أرسطو لا يبدو أكثر دقةً من نزعته الرواقية في تفسير العقل، وفي الابتعاد عن الموقف الرشدي الذي اعتبرَ العقل الفَعّال، عامّاً مشتركاً وأبدياً أزلياً. وضع بومبو، بتأييدٍ من البابا كتابه «**في الخلود**» (1518) دحضاً للموقف الأَفروديسي وتأييداً للموقف الرشدي.

ونجد الرواقية مع الأفلاطونية تمتزجان أيضاً مع الإيمان بالتنجيم والطالَع والقوى الخفية عند ج. **كردانو** (1501 ـ 1576). وفسَّر باقتراب الكواكب ظهور الأديان (المسيح والقِران بين المشتري والشمس؛ اليهودية مصدرها زحل). ولا يخلو ذلك الفكر من تأثر بالفضاء العربي ولا سيما بمارسيل فتشينو.

أخيراً، يُعَدّ تشيزاري كريموتيني (1550 ـ 1631) آخر مُمثّلي الرشدية اللاتينية، في عصر النهضة وفي داخل إيطاليا أمّ النهضة وفي بادوڤا أشهر الجامعات الإيطالية. قُبيل بوفاته بعدّة سنواتٍ كان ديكارت، في سنة 1928، يَبسط آراءه الفلسفية ويقدّمها بمثابة فلسفةٍ دينيةٍ في وجه أرسطو، والتومائية، والملاحِدة؛ أي فلسفةً مؤيِّدة، بوجهٍ عام، للأغوسطينية، أو متأثرةً بأَنسليموس، وأوكام، والإسمانية.

وإذن، في الحين نفسه الذي كان فيه ديكارت يَبسط ما صار يُعدّ بداية الفلسفة الأوروبية الحديثة، كان كريمونيني يَبسط فلسفته الرشدية اللاتينية مَعروضةً كفلسفةٍ تقول بِقِدَم العالم وضرورته وخلوده، وباعتبار النفس متَّحِدةً مع البدن وتفنى بفنائه، وبإنكار الخلود البشري والعناية الإلهية.

4 ـ قطاع العلماء والمذهب الطبيعي، تيار الكوبرنيكية العربية:

يؤخَذ معاً تطورُ المذاهب الفلسفية، وظهورُ العلماء أو قفزاتُ العِلم، وعصرُ النهضة. بذلك الأَخْذِ الشامل، يَتوفّر إمكانُ الشرح، ثم شروطُ فهم الفلسفةِ الحديثة. فقد طَوّر الفنَّ والعِلم، كما الطرائق والفكر عموماً، الإيطالي ل.دي فِنْشي (ت. 1519). لقد كان التجريب، والمنهج الرياضي، من أهَمّ الطرائق التي ثمّرها، ورفعها ـ كما مَرّ ـ في وجه القانون في الطب، توخياً لتأسيس التشريح والعلوم الأخرى.

وراكَم ن. كوبِّرْنيكوس (ت. 1543)، وقد مَرّ بجامعتَي بولونيا وبادوڤا (أمضى حوالي السنوات العشر في إيطاليا) معقل الرشدية اللاتينية، وحيث الشكوكُ بعِلم الفلك والنزعات للبحث عن تأسيسٍ جديد للعلوم.

وأتى ڤيڤيس (ت. 1540)، المولود في بلنسية، يبحث في النفس. هنا ردَّد أنّها مخلوقة؛ ثم هي أيضاً ذات طبيعةٍ روحانية، غير مكتفيةٍ بالمحسوس، وهي مبدأ الحياة. وضع مركز المعرفة في الدماغ، بعد أن كان الأرسطويون يضعونه في القلب؛ وجَعَل من القلب موضع الانفعالات وأساس الحياة[1].

وحارب **كبلر** (ت. 1630) من أجل جعل الرياضيات العِلم الأكمل، وأيّد نظرية كوبرنيكوس، واكتشف مدارات.

وأعطت جامعة بادوڤا الإيطالي **غاليليو** (ت. 1642) إذ دَرّس فيها سبع عشرة سنة (1593 ـ 1610)، وعزّز النظريات العلمية الجديدة، ورأى عجز المنطق الصوري عن الاستكشاف وقصورَه حيال التجريب، وعاد إلى نظرية ديموقريطس وإلى مذهب التصور أي منافاة الإسمانية. لقد كان له، ولزملائه الواردين أعلاه، تأثير على تَرسّخ النزعة إلى العلوم الطبيعية والرياضية.

5 ـ تيار الأخلاقيين والسياسيين، الرواقية المحْدَثة في عصر النهضة:

أشبَعت الرواقيةُ أسئلةَ الفكر حول الطريق في الحياة والحكمة والإنسان. ولم تكن الرواقية معاديةً للدين، ولا هي خَبت في الفكر الوسيطي. كان شيشرون، سِينيكا، ماركوس أوريلوس، أبيكتيتوس، معلِّمين في مجال الأخلاق والحياة الفاضلة السعيدة.

يُهمّنا، في مجال الفكر السياسي، الإلماحُ إلى **ن. مكيافِلّي** (1469 ـ 1527)، لا في حَدّ ذاته بل من حيث هو موضوع إشكاليةٍ تُطرح هنا سريعاً ومؤداها الموازاة والفروق بينه وبين قطاع أساسي في الفكر العربي هو قطاع «مرايا الأمراء» أو آدابية

---

(1) معروفٌ جيداً اهتمام كوبرنيكوس، وأستاذه أ. البرودزوماوي (مِن: برودزوڤا)، إنْ في كراكوفيا أَم في جامعات إيطاليا، والأستاذ م. البرِسْلافي، بآراء ابن رشد والبطروجي.

السلطان. وإذا استطعنا القول إنّ مكيافيلي كان منتوجَ عصره والفضاء الفلسفي اليوناني العربي اللاتيني، سَهُل علينا التقاطُه ومن ثم طرحُه وفهمه على بساطٍ واسع داخل الدار العالمية للفكر.

وبَعدُ، أيضاً، فإنّ جان بودن (Bodin) إنْ في «الجمهورية» أم في «المتحاوِرون السبعة» يُقدِّم فكراً سياسياً يبدو مُقِرّاً بالقُربى، وموازياً أو متوافقاً مع المعروف داخل الفكر السياسي للرُّشدية اللاتينية، لشروح ابن رشد على الفكر السياسي اليوناني ولا سيما شرح «جمهورية» [=كتاب السياسة] لأفلاطون.

6 ـ تيار الفلسفة، إيطاليون أفلاطونيون معادون لأرسطو:

يُقدَّم **تيلزيو** (1509 ـ 1568) كأول أولئك الفلاسفة. تَميّز مذهبه الإحيائي بالنزعة إلى الشمولية، ثم بتحركٍ كاملٍ داخل الرواقية إنْ من حيث النظر إلى القوة والحركة، أم إلى النفس والجسم وإلى المعرفة ثم إلى الأخلاق. وعلى النقيض من التقية عنده والاحتياط حيال السلطة الكنسية، فإنّ **ج.برونو** (1548 ـ 1600) أظهر أفكاره مما تَسبّب له بالموت حرقاً بعد عذاباته على يد ديوان التفتيش.

تعتبر الفلسفةُ برونو، بغضّ النظر عن الكلام في شخصيته أو سلوكاته، بمثابة أحد شهدائها. وتستطيع الفلسفة اعتبارها من كبار المهتمّين بأسئلتها العريضة للوجود والعقل والمصير؛ ويَنتصر العقل المستقِلّ لذلك الباحث باستقلالٍ وبتفكير قد يقال فيه إنه تفكير حُرّ حيال الموروث والمعتقدات الدينية. كما أنّ الفكر العربي المعاصر، المهتم بالفلسفة وبتاريخها، يتجاوز السجالية الوسيطية بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية، رافضاً بذلك ما نجده عند مؤرخ وسيطي معاصر، هو المرحوم يوسف كرم، في مسبقاته وأيديولوجيته وتبريراته المُحاكِمةِ لا لفكر ج.برونو وإنما لمواقفه آنذاك من السلطة الدينية. على الصعيد الفلسفي، تُعرَض أفكار برونو بمثابة فكرٍ توفيقي انتقائي، ومعادٍ لأرسطو. فقد كان برونو أفلاطونياً؛ والأفلاطونية المحْدَثة تَبنّى أقانيمها الأربعة (الله، العقل الكلّي، النفس الكلّية، المادة). وقد أخذ كثيراً، في طموحه لبناء

نظرية شمولية، من الهرمسيات، والديانة المصرية والأفلاطونية الباطنية أو، بكلمة عامة، الغنوصيات.

7 ـ كامْبانيلاّ:

ونجد عند توماسّو كامْبانيلاّ (1568 ـ 1639) ذلك الميل للتنجيم والسحر أو للعلوم الخفية، والمعاداةِ لأرسطو، والتوجّه نحو الآراء الطبيعية والابتعاد عن التوفيق بين الدين والفلسفة. من هنا كان يُرى كمعادٍ للتومائية، وقريباً من ج.برونو. استطاع كامبانيلاّ الفلات من «امتحان» محكمة التفتيش. لكنه لم يَنجُ من التعذيب الهائل، وبقي في السجن سبعاً وعشرين سنة ـ مُتَّهماً بالتعامل مع الشيطان ـ ترك بعده نابولي إلى روما ثم إلى فرنسا. وبعد ذلك كله، فإنه يُعتبَر منظِّراً للسلطة البابوية، ولهيمنة الكنيسة، وللنظام المَلَكي.

تظهر الرواقية ماثلةً، في مذهب كامبانيلاّ، عبر قوله في أنّ العالَم تمثالُ الله الحيّ والعالِم، وفي اعتبار العالم حَيَّاً ذا نَفْس وموجوداً حاسّاً (لأنّ بعض أجزائه ذات حِسّ فهو من ثم كُلٌّ حَيّ ويَحُسّ). وهنا نعود إلى برونو، وتيليزيو؛ وليس في أفكاره عن النفس والمعرفة وفي الماورائيات ما هو كثير الأهمية أو على القدر عينه من الأهمية التي تَحضُر في أفكاره الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الطوباوية اللاحُدوثية. وقد يكون لرأيه في نفسه، حيث اعتبرها المسيح المنتظر، مكاناً من أجل فهم جمهوريته المثالية المتخيَّلة إنْ في كتابه «مدينة الله» أَمْ في كتابه الآخر «مدينة الشمس». فقد تحرك تفكيره الاجتماعي متأثراً بدورٍ كبير معطىً للعامل الاقتصادي وباعتبار البشرية وحدةً وذات ديانة طبيعية.

يقود الكلام عن الأفلاطونية في عصر النهضة، ومن ثمت عن الغنوصيات والهرمسيات، والخاصة عن التصوف الألماني، إلى تغيرٍ مع الصوفيين الإسبان أي مع القديسة تيريزا الآبلية (ت. 1582) والقديس يوحنا الصليبي (ت. 1591). وليس خافياً، في تاريخ الفكر الصوفي، أنّ التجربة العربية الإسلامية في التصوف قد أثّرت وأَثْرت، في مجال توجيه النظر إلى الداخلي وما هو قلب وسعيٌ عملي للاتصال بالله ولصقل النفس في رحلتها إلى الحقيقة الأسمى ليس عن طريق البحث المجرَّد والنظر العقلي والفلسفة بل عن طريق الممارسة وتكييف

الشخصية[1].

أخيراً، يُعَدّ جاك بوهمي (1575 ـ 1642) متصوفاً ألمانياً، أي منشغلاً بالفكر والعلوم الخفية كالخيمياء والتنجيم والسحر أو بالغنوصيات والباطنيات. ولم تكن لوثريته مانعةً لاضطهاده على يد السلطات الدينية التي أخذته بتهمة الهرطقة؛ فسجَنته، وحرمته من الكتابة.. كما طُرد.. ويرى فيه المؤرّخون المعاصرون، وهو المُعَدّ صوفياً ألمانياً، رائداً في مجال المثالية الجرمانية، ورائداً في الفكر الروحاني وعالم التأويليات الباطنية والثيوصوفية. كما نجد، من أولئك المؤرخين، من يعتبر ذلك الغنوصي الألماني ذا تأثير في هيغل والرومانسية وما يشبههما[2].

(1) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة (القاهرة، دار المعارف، ط4، 1966)، ص 33 ـ 34. مما يقوله ذلك المؤرّخ، في برونو: «وكان منهاج العصر يحتمل هذا الضرب من الإعدام [الإحراق]..؛ كان راهباً معيباً وفيلسوفاً مفتوناً، جَوّاب آفاق، مشاكساً مهاتِراً» (ص 34).

(2) نجد بارزاً، وغنائياً شاعرياً، حضور التصوف العربي في التصوف الإسباني، ومن ثم الأوروبي بعامةٍ، في كُتُب «قطاع التأثير العربي الإسلامي في أوروبا» وفي قطاع الردود القديم اللانافع على الاستشراق والعِرقمركزية.